

الفصل الأول أبو بكر في حياة النبي

ليس فيما انحدر إلينا من الروايات عن نشأة أبي بكر الأولى ما يعاون على نشأته الأولى
تعرف شخصيته في هذا الطور من حياته . فما يروى عن طفولته وعن صباه
لا غناء فيه . وما يروى عن أبيه وعن أمه لا يعدو ذكر اسميهما ، وذكر
ما كان من أبيه بعد أن أصبح أبو بكر رجلاً من كبار المسلمين له في حياة أبيه
أثر ، ولا أثر لأبيه في حياته . وإنما يعنى المؤرخون من أمره بذكر قبيلته ومكانتها
من قريش ، شأنهم في ذلك كشأنهم في غيره مما يتصل بتاريخ العرب ؛ إذ
يرون في نسبتهم إلى قبيلة من القبائل ما يفسر بعض طباعهم وأخلاقيهم .
وقد يكون ذلك حسناً ، وقد يراه المؤمنون بمبدأ الوراثة صالحاً لتحقيق مذهبهم ،
وإن رأى غيرهم من المبالغة في تقديره ما يصرفهم عن الدقة في تمحيصه .

وأبو بكر من قبيلة تميم بن مرة بن كعب ؛ فهو يلتقى في نسبه بالنبي
ويرتفع إلى عدنان . وكان لكل من القبائل المقيمة بمكة اختصاص بأمر يتصل
أو لا يتصل بمنصب الكعبة . فكان لبني عبد مناف السقاية والرقادة ، ولبني
عبد الدار اللواء والحجاجة والندوة ، وذلك قبل أن يولد هاشم جد النبي . أما
قيادة الجيوش فكانت لبني مخزوم أجداد خالد بن الوليد ، وكانت الدييات والمغارم
لتييم بن مرة . وقد آل أمر الدييات في الجاهلية إلى أبي بكر حين اشتد ساعده
فتولى الزعامة في قبيلته ؛ لذلك كان إذا احتمل شيئاً منها فسأل قريشاً صدقوه
وأَمْضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره نخذلوه .

وقد رويت في الإشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصها
كتب المتأخرين . ذكروا أن المنذر بن ماء السماء طلب امرأ القيس بن حجر
الكندي فأجاره المَعَلَى التيمي ؛ فقال امرؤ القيس في ذلك :

أقرَّ حسناً امرئ القيس بن حجرٍ بنو تيمٍ ، مصابيح الظلام

ولهذا البيت سمي بنو تيم « مصابيح الظلام » .

على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبني تيم من الصفات لا يختلف عما ينسب لغيرها من القبائل ، ولا يميزها لذلك بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيمن ينسب إليها . فهذه الروايات تنسب إلى تيم من صفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما إليها ما تشترك القبائل العربية التي تعيش تحت سماء الجزيرة في التمدح به والانتساب إليه .

لهذا لم يقف مؤرخو أبي بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ؛ وإنما بدعوا روايتهم بذكره وذكر أبيه ، ثم تخطوا طفولته وصباه إلى شبابه وإلى ما كان يزاوله فيه من عمل . ذكروا أن اسمه عبد الله بن أبي قحافة ، وأن أبا قحافة أبوه واسمه عثمان بن عامر ، وأن أم الخير أمه واسمها سلمى بنت صخر بن عامر . ورؤى أنه كان يدعى قبل الإسلام عبد الكعبة ، فلما أسلم دعاه رسول الله عبد الله . وقيل إنه كان يسمى عتيقاً ؛ لأنه لم يكن يعيش لأمه ولد . فنذرت أمه إن وُلِدَ لها ولدٌ أن تسميه عبد الكعبة ، وتتصدق به عليها . فلما عاش أبو بكر وشبَّ سمي عتيقاً ، كأنه أعتق من الموت . على أن الرواة يذهبون إلى أن عتيقاً لم يكن اسمه وإنما كان لقباً غلب عليه لبياض لونه . وتذهب رواية أخرى إلى أن عائشة ابنته سئلت : لم تسمي أبو بكر عتيقاً ؟ فقالت : نظر إليه رسول الله فقال : هذا عتيق الله من النار . أولأن أبا بكر أقبل يوماً ومعه طائفة من أصحابه فقال رسول الله : « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا » . أما كنية أبي بكر التي لزمته حياته فلم تذكر الروايات سببها ، وإن ذكر بعض المتأخرين استنباطاً أنه كُنِيَ بها لأنه بكر بالإسلام قبل غيره .

اسمه ولقبه
وكنيته

وقد عاش أبو بكر في طفولته وصباه عيش أمثاله بمكة . فلما تخطى الصبا إلى الشباب عمل في التجارة بزازاً يبيع الثياب ، فوفَّق كل التوفيق . وقد تزوج صدر شبابه من قَتَيْلَةَ بنت عبد العزَّى ، فولدت له عبد الله وأسماء . وأسماء هي التي لقت من بعد ذات النطاقين . وتزوج بعد قَتَيْلَةَ أم رومان بنت عامر بن عُوَيْمِر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة . ثم تزوج بالمدينة من حبيبة بنت خارجة ، ثم من أسماء بنت عُمَيْس فولدت له محمداً . وكانت تجارته أثناء ذلك تزداد سعة وتزیده ربحاً وثراء .

صباه وشبابه

ولعل شخصه وخلقه كانا من أسباب نجاحه في هذه التجارة ، فقد كان أبيض اللون ، نحيفاً ، خفيف العارضين . معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتيء الجبهة ، عارى الأشجاع . كذلك وصفته ابنته عائشة أم المؤمنين . وكان رجلاً رضى الخلق ، رقيق الطبع ، رزيناً ، لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان لرزاقته وحسن رأيه ورجاحة عقله ، لا يشارك قومه في كثير من عقائدهم وعاداتهم . ذكرت عائشة أنه لم يشرب خمرأً في جاهلية ولا إسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكة الخمر وإدمانهم لها . وكان نسابة ، حسن الحديث ، لطيف المعاشرة . وصفه ابن هشام صاحب السيرة فقال : « كان أبو بكر رجلاً مألُفًا لقومه ، محبباً سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته » .

حب بمكة
واتصاله بمحمد

وكان يعيش بمكة في الحى الذى تعيش فيه خديجة بنت خويلد ، ويعيش فيه التجار النابيهون الذين تذهب تجارتهم في رحلتى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن . ومقامه بهذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد بروابط الألفة بعد أن تزوج محمد من خديجة وانتقل إلى دارها . وكان أبو بكر يصغرُ محمداً بسنتين وأشهر . وأكبر الظن أن التقارب في السن والاشتراك في العمل والاتفاق في سكيته النفس ورضا الخلق ، وفي الرغبة عما تزاول قريش من عادات وعقائد - أكبر الظن أن هذا كملته كان ذا أثر في مودة محمد وأبي بكر مودة يختلف الرواة إلى أى حد توثقت عراها قبل أن يبعث محمد رسولا . فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعث ، وأن توثقت عراها كان ذا أثر في سبق أبي بكر إلى الإسلام . أما غير هؤلاء فيذكرون أن صلة الرجلين لم تتوثق إلا من بعد . وأن مودتهما الأولى كانت مودة جوار وتوافق في الميول ليس غير . ولعل أصحاب هذا الرأي يؤيدونه بما عُرِف من حب محمد العزلة والانقطاع عن الناس سنوات طويلة قبل بعثه . فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله ، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحمد ؛ ولم يتردد أبو بكر أن أجاب داعى الله . ومن يومئذ توثقت الصلة بين الرجلين ، ثم زادها صدق أبي بكر

في الإيمان بمحمد ورسالته متانةً وقوةً . كانت عائشة تقول : « ما عتقلتُ أبويَّ إلا وهما يدينان الدين . وما مر علينا يوم قطُّ إلا ورسول الله يأتينا فيه بكفرةً وعشيّةً » .

ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر محمدًا في الدعوة لدين الله . وكان إلفُ قومه إياه وجبهُم الجلوس إليه والاستماع لحديثه ، ذا أثر في استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة . فقد تابع أبا بكر على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبّيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير ابن العوام . كما أسلم من بعدهم ، بدعوة أبي بكر ، أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة .

عدم تردده في قبول الدعوة ، وسببه

وقد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر في قبول الدعوة إلى الإسلام أول ما وجهها محمد إليه ، وكيف يبلغ من عدم تردده أن يقول عنه رسول الله من بعد : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كربة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكس^(١) حين ذكرته له وما تردد فيه » . وليس كل العجب أن محمدًا ذكر له التوحيد ودعاه إليه فاستجاب له . بل أكبر العجب أن محمدًا قص عليه حديث حِراء والوحي الذي نزل عليه ، فلم يتردد في تصديقه . وإنما يزيل عجبنا ، أو يخفف منه ، أن أبا بكر كان من حكماء مكة الذين يرون عبادة الأصنام حقاً ومسيئاً ، وأنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورُجحان عقله ما لم يدع في نفسه موضعاً للريبة فيما قص عليه مما رأى وسمع ، وبخاصة لأنه رأى في هذا الذي قصه الرسول عليه ما يتفق وموجب الحكمة وما لا يتردد العقل في تصديقه والأخذ به . على أن ما يزول من عجبنا لا يغير من تقديرنا جرأة أبي بكر في إقدامه ومجاورته المعروف للناس في موقف دعا غيره ممن وجهت الدعوة إليهم للنظر والتردد والناس الأناة والروية . وجرأة أبي بكر وإقدامه أجدر بالتقدير لأنه كان تاجراً تقتضيه تجارته الحساب لصيلاته بالناس وعدم مواجهتهم بما يخالف ما لوف آرائهم وعقائدهم خشية ما يجره ذلك على معاملاته من سيئ الأثر . فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس ويرونها ميناً باطلاً وحديث خرافة ، ثم يكتمون

جرأته في قبول الإسلام وفي الدعوة إليه

(١) ما عكم : ما تحبس وما انتظر ولا عدل .

ذلك أويتظاهرون بتقيضه التماساً للعافية ، وجرراً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النفاق في سواد الناس وعامتهم ما تجده في الخاصة والمثقفين منهم ، بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة الناس والإبانة لهم عن وجه الحق في الحياة . لا جرم ، وقد كان موقف أبي بكر منذ اللحظة الأولى ما ذكره رسول الله ، أن يكون موضع التقدير غاية التقدير ، والإعجاب غاية الإعجاب .

وقيام أبي بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب . فعمل تاجراً مثله يقتنع بصدق محمد قد كان يقنع بتصديقه سرّاً ولا يظهر الناس على شيء من أمره حتى تظل تجارته متصلة . ولعل محمداً كان يقنع منه بذلك ويحمده له . فأما أن يظهر أبو بكر إسلامه ، وأن يدعو إلى الله ورسوله وأن يصل من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق محمد ومتابعته على دينه ، فذلك ما لا عهد للناس به إلا فيمن سمّت أنفسهم إلى حيث تقدّر الحق لذاته ، وترتفع به فوق منافع الحياة ، وترى في تأييده والدعوة إليه ما يُصغر من شأن الدنيا وعرضها وإن عظم . ولقد كان ذلك شأن أبي بكر في صحبته محمداً منذ أسلم إلى أن اختار الله محمداً ، وإلى أن توفي أبو بكر من بعده .

وإني لأذكر ما كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب من أثر في توطيد كلمة الإسلام ، وكيف أبد الله بهما دين الحق ، لما عُرِف عنهما من قوة بأس ، ومضاء عزم ، وصلابة تخيف من يناوئهما ، ثم أذكر الصديق وإسلامه فلا أتردد في القول بأنه أول من أيد الله به دينه . فهذا الرجل الرضى النفس ، الوديع الخلق ، الرقيق الطبع ، حتى لتسرع الدمعة إلى عينه لمراى الألم يصيب غيره ، قد بلغت قوة إيمانه بالدين الجديد ، وبالرسول الذي جاء به من عند الله مبلغاً لا تدانيه قوة ولا يتغلب عليه سلطان . وهل كقوة الإيمان في الحياة شيء ! وهل كسلطانه في الحياة سلطان ! والذين يحسبون أن قوة البطش وسلطان البأس هما في الحياة الأثر البالغ يتورطون في أفحش الخطأ . فالنفس الراضية المطمئنة إلى إيمانها بالحق ، الداعية إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، المتخذة من وداعة الخلق ، ورقة الطبع ، ومشاركة الضعيف والبائس في ألم البؤس والضعف وسائل دعوتها ، هذه النفس أجدر أن تبلغ من غايتها ما تريد ،

الصديق أول من
أيد الله به دينه

لأنها تندمج في غيرها من النفوس فتطبعها بطابعها وتصوغها على غرارها. ولقد كان ذلك أثره - رضى الله عنه - في السنوات الأولى من الدعوة المحمدية . وبقى ذلك أثره إلى أن تولى الخلافة وإلى أن مات .

فهو لم يقف من تأييد الدعوة عند التحدث إلى أصحابه وإقناعهم بها . ولم يكفه أن يبذل للضعفاء والبائسين من رضا نفسه ووداعة خلقه ما يعزيهم عما كان خصوم الدعوة يُرهقونهم به من أذى وتعذيب . بل كان ينفق من ماله . وكان يصطفى بهذه النفقة أولئك الضعفاء والبائسين ممن هداهم الله إلى الحق فأذاقهم أعداء الحق الضر وابتلوهم بألوان البأساء . وحسبك أن تعلم أنه كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وأنه أقام بعد إسلامه يتجر فيجنى وافر الربح ، فلما هاجر إلى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم . أما سائر ما كان عنده وما ادخره من بعد ، فقد ذهب في سبيل الدعوة إلى الله والدعوة لدينه ولرسوله . وأيسر ذلك ما افتدى به الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا ، فعذبهم سادتهم بإسلامهم . وأذاقوهم الهون ألوانا .

إنفاته من ماله
لحماية الضعفاء

رأى أبو بكر يوماً بلالاً الحبشى قد ألقاه سيده على الرمل في لظى الشمس . ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لأنه أسلم . ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر : «أحدٌ أحدٌ» . عند ذلك اشتراه أبو بكر وأعتقه . وعذب عامر بن فهيرة . فاصطفاه أبو بكر راعياً لأغنامه . واشترى كثيراً كذلك من الموالى الذين يعدّون . رجالا ونساء وأعتقهم .

على أن أبا بكر لم يسلم من أذى قريش . كما لم يسلم محمد من هذا الأذى على رغم مكانته من قومه ومنع بنى هاشم له . ولم ير أبو بكر قريشاً تؤذى محمداً إلا وقف دونه وعرض حياته للذود عنه . روى ابن هشام أن شراً ما نالت قريش من رسول الله قد كان بعد أن عاب دينهم وسب آلهتهم . فقد اجتمعوا في الحجر يوماً « فقال بعضهم لبعض : ذكرت ما بلغ منكم . وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكروهون تركتموه . فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول

مواقفه في
مناصرة النبي

أفخطر ببالك يوماً أن تسأل : تُرى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره في حديث الرسول عن الإسراء ، فاعسى أن يحدث من أثر هذه الريبة في حياة الدين الناشئ ؟ وهل قدرت ماقد يؤدي ذلك إليه من تضاعف عدد المرتدين ، ومن بلبلة العقيدة في نفس غيرهم من المسلمين ؟ وهل ذكرت كيف ثبتت إجابة أبي بكر عقائد الكثيرين ، وكيف حفظت للإسلام يومئذ مكانته ؟ إن كنت قد سألت وقدّرت وذكرت فلا ريب أنك لم تتردد من بعد في الحكم بأن الإيمان الصادق أقوى سلطاناً في الحياة من قوى البطش والبأس جميعاً ، وأن كلمة أبي بكر هذه كانت بعض عناية الله بدينه الحق ، وأنها نصرته وأبنته أكثر مما أيدته قوة حمزة وعمر من قبل ، وهي لذلك حقيقة بأن تجعل لأبي بكر في تاريخ الإسلام المكان الذي جعله الرسول له حين قال : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وكلمة أبي بكر في الإسراء تدلُّ على إدراك تام للوحي والرسالة لا يرثاه كثيرون ، وتريك حكمة الله في أن يختاره الرسول صفيّه يوم اصطفى الله رسوله ليبلغ الناس رسالته . وهي كذلك الحجّة البالغة على أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، يخلد أثرها على الزمان بفضل الله ، فلا سلطان للزمان عليه ولا يأتي عليه النسيان .

أقام أبو بكر من بعد حديث الإسراء برعى تجارته في حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمدخلها ومخارجها ، وينفق جلّ وقته في صحبة الرسول ، وفي حماية الضعفاء الذين أسلموا ، وفي دفع أذى قريش عنهم ، وفي دعوة من تلين قلوبهم للإسلام . هذا وقريش تشتد في أذى النبي وفي أذى أبي بكر وسائر المسلمين . ولم يدر بخاطر الصديق أن يهاجر مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم^(١) ، بل ظل مع محمد بمكة يجاهد معه في سبيل

ما كان يقوم به بعد الإسراء

(١) تجرى رواية بأنه خرج مع المهاجرين إلى الحبشة فلقيه ابن الدغنة فقال له : « وياك لا تهاجر . إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المعلوم ، وتعين على نوائب الدهر » . وأجازه ، وأجازت قريش جواره . وأقام أبو بكر بمكة وأقام بفناء داره مسجداً يصل فيه ويتلو القرآن . فخافت قريش أن يفتن نساءها وصبيانها فشكوه إلى ابن الدغنة فرد أبو بكر جواره وظل بمكة معرضاً للأذى .

الدعوة إلى دين الله ويتلقى عنه ما يوحى الله إليه ليذيعه في الناس ، ويبذل من رضا نفسه ومن طيبة خلقه ومن حرّ ماله كل ما يستطيع بذله ، لخير من أسلم ، ولهداية من لم يسلم .

وما كان أحوج المسلمين بمكة يومئذ إلى هذا الجهد وإلى هذه الرعاية من أبي بكر ! فقد كان محمد يتلقى وحى ربه . وكان قد يشس من استجابة أهل مكة لدعوته ، فوجهَ همّةً إلى القبائل يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الله ، وقد ذهب إلى الطائف يستنصر أهلها فردّوه ردّاً غير جميل وكان في اتصاله بربه دائم التفكير في رسالته والدعوة إليها وفي الوسيلة لنجاح هذه الدعوة . هذا إلى أن قريشاً لم تسكت قط عنه ولم تنقطع عن مناوئته . إزاء ذلك كله أخذ أبو بكر نفسه بالتفكير في أمر المسلمين المقيمين بمكة ، وفي تنظيم الوسائل للسهر على طمأنينتهم .

اتصاله بالمسلمين
وبغير المسلمين
لدفع أذى قريش

ولئن لم تذكر كتب السيرة ولم يذكر من أرخوا لأبي بكر من عمله في ذلك ما فيه غناء ، إنني مع هذا لترسم في نفسي صورة واضحة من عنايته ومن اتصاله الدائم بحمزة وبعمر وبعثمان وبكل ذي رأى في المسلمين أو سلطان لدفع أذى قريش عن الضعفاء الذين أسلموا . بل إنني لأتصور ما كان من اتصاله بغير المسلمين ممن أقاموا على دينهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقريش أن تناوئ من لا يقرها على عقيدتها في الأصنام وعبادتها . ولقد رأينا في سيرة الرسول كثيرين من هؤلاء قاموا يدفعون عن المسلمين أذى قريش ؛ ورأينا الذين قاموا في نقض الصحيفة إذ تعاهدت قريش على مقاطعة محمد وأصحابه وعلى محاصرتهم حتى احتتموا ثلاث سنوات تباعاً في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، لا يتصلون بالناس ولا يتحدثون إليهم إلا في الأشهر الحرم . ويقينى أن أبا بكر قد كان له في تحريك هؤلاء الذين لم يتابعوا محمداً على دينه ، والذين غضبوا مع ذلك لما يصيبه من أذى قريش ، أثر بالغ أدركه برفقه وحسن حديثه وجميل عشرته .

وما قام به أبو بكر من حماية المسلمين إيمان نشأة الدين هو الذي زاده من محمد قريباً ، وهو الذي ربط بين الرجلين برابطة إخاء في الإيمان جعلت

محمدًا يصطفيه خليلًا . فلما أذن الله لدينه أن ينتصر بقوة أهل يثرب بعد بيعتي العقبة ، أذن محمد لأصحابه في أن يهاجروا إليها ، كما أذن لهم من قبل في أن يهاجروا إلى الحبشة . ولم تعرف قريش أيهاجر محمد مع أصحابه إلى يثرب ، أم يظل بمكة كما ظل بها حين هجرة المسلمين إلى الحبشة . أعرف أبو بكر من مقصد محمد ما لم تعرف قريش ؟ كل ما يروى عن ذلك أن أبا بكر استأذن محمدًا في الهجرة فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا » ولم يزد على ذلك .

إعداده للهجرة
ثم الهجرة

ها هنا تبدأ صفحة أخرى من صحف الإيمان القوي الراسخ بالله ورسوله . فقد كان أبو بكر يعلم أن قريشًا قامت ، منذ عرفت بهجرة المسلمين إلى يثرب ، ترد كل من استطاعت رده منهم إلى مكة ، لتفتنه عن دينه ، وتعذبه وتكبل به . ثم إنه علم أن المشركين اجتمعوا بدار الندوة يأمرون بمحمد ليقتلوه . فإن هو صحب محمدًا في هجرته فأقدمت قريش على قتل الرسول قتلت أبا بكر لا محالة معه . مع ذلك لم يردد حين استمهله محمد ، بل شاعت الغبطة في أنحاء نفسه وأيقن أنه إن يهاجر مع الرسول يجعل الله له بذلك من الفضل والفخر ما لا يعد له فضل ولا فخر ، وإن يُقتل معه فإنما هو الاستشهاد الذي يُجزى صاحبه جنة الخلد .

ومن يومئذ أعد أبو بكر راحلتين وأقام ينتظر مصيره ومصير صاحبه . وإنه لفي بيته ذات مساء إذ أقبل محمد كدأبه كل مساء ، وأخبره أن الله أذن له في الهجرة إلى يثرب . ورغب الصديق إلى رسول الله أن يكون رفيقه في الهجرة ، فأجابه إلى ما طلب . وعاد محمد إلى بيته وفتيان قريش يحاصرونه مخافة أن يفر . وأسر محمد إلى علي بن أبي طالب أن يتسجى برده الحضرمي الأخضر وأن ينام في فراشه ، ففعل ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج في غفلة من فتية قريش إلى دار أبي بكر ، فإذا هو يقظ ينتظره . وخرج الرجلان من خوخة في ظهر الدار وانطلقا جنوبًا إلى غار ثور فاخترتا فيه .

أطلقت قريش فتيانها في كل واد وفي كل جبل ، يبحثون عن محمد ليقتلوه

فلما بلغوا ثوراً تسلقه أحدهم إلى الغار ، لعله أن يعثر به . وتصيب أبو بكر عرقاً حين سمع تناديههم ، وأمسك أنفاسه وبق لا حراك به وسلم لله أمره . أما محمد فظل فيما كان فيه من ذكر الله والصلاة له ، واقترب أبو بكر من صاحبه وألصق به نفسه ، فهمس محمد في أذنه : « لا تحزن ، إن الله معنا » .

وأدار الفتى القرشيُّ بصره فيما حول الغار فرأى العنكبوت نسجت على فوهته ، فانصرف يقول لأصحابه الذين سألوه ماله لم يذهب إليه : « إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد » . وانصرف الفتية قائلين يعضون البنان ندماً . فلما بعدوا نادى محمد : « الحمد لله ، الله أكبر » وازداد أبو بكر بما رأى إيماناً وثباتاً .

إلام يرجع فزع
الصديق حين
كانا في الغار؟

أفكان فزع أبي بكر حتى ليمتصّب منه العرق ويمسك أنفاسه ويلتصق برسول الله بعض ما دعا إليه حب الحياة والحرص عليها ، فهو يعشى على نفسه أن يصيبه المكروه ؟ أم أنه لم يفكر في نفسه ما فكر في رسول الله ، وأنه كان يودّ لو يفقدى رسول الله بنفسه إن استطاع ؟ روى ابن هشام عن الحسن ابن أبي الحسن البصرى قال : « انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حيّة ، يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه » وذلك كان شأنه في تلك اللحظة الدقيقة من حياته حين كان يسمع إلى فتیان قريش ، فيهمس في أذن النبي : « لو بصر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . لم يكن يفكر فيما قد يصيبه ، وإنما يفكر في رسول الله وفي مصير الدين الذي يدعو إليه بأمر ربه لو أن هؤلاء الفتیان ظفروا به قتلوه . بل لعله لم يفكر في شيء بذاته تلك اللحظة ، وإنما كان شأنه شأن الأم تعشى الخطر على ابنها ، فهي ترتجف وتفزع ويتولاها الملعثم لا يساعفها عقلها برأى أو تفكير ، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها في وجهه تريد أن تصدّه أو تموت دونه . أم أن أبا بكر كان أشد من هذه الأم هلعاً وأكثر منها استهانة بالخطر إذا أقبل ، لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل

ما تحسه نفوسنا أو يدور بخواطرنا . وما بالك بإيمان تجسم أمامه في رسول الله فتجسمت معه كل المعاني المقدسة في أعظم صورها قدسية وأسمائها روحانية ! أتصور الساعة أبا بكر في مجلسه ورسول الله إلى جانبه ، وأصور الخطر محققاً عليهما فلا يسعفني خيالي بمثال يبرز كل ما في هذه الصورة الفذة من حياة لا نظير لها في كل صور الحياة .

قص التاريخ نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم من الزعماء أو ملك من الملوك . وفي عصرنا اليوم زعماء يقدهم الناس ، فهم أحب إليهم من أنفسهم . لكن موقف أبي بكر بالغار يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة ، وأكثرهم في التصوير براعة . فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصديق بالرسول الذي اصطفاه الله فأوحى إليه دينه الحق ! ! وأين لذلك افتداء الناس ملوكهم وزعماءهم مما جال بخاطر الصديق في هذه اللحظة التي خشي فيها الخطر على حياة الرسول ثم كان أشد خشية ألا يدفع الخطر دافع ؟ ! ! هذا مقام من السمو لا سبيل للرقى إلى تصويره ؛ ولذا أمسك كتّاب السيرة عن الحديث فيه أو كادوا .

أين افتداء الملوك
والزعماء من
افتداء رسول الله

وسكن الناس عن الرجلين وتولاهم اليأس من العثور عليهما ، فخرجا من مخبئهما وارتحلا ، يواجهان ما في الطريق من أخطار لا تقل عما تعرضا له بالغار . وحمل أبو بكر ما بقي له من ربح تجارته خمسة آلاف درهم . فلما بلغا المدينة وتلقى الناس رسول الله يبشرونه كل بشر ، بدأ أبو بكر حياته فيها كأى رجل من المهاجرين ، وإن ظلت له مكانته من رسول الله ، مكانة الخليل والصديق والوزير المشير .

ونزل أبو بكر بالسُّنْح من ضواحي المدينة على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج . فلما آخى النبي بين المهاجرين والأنصار كان أبو بكر وخارجة أخوين . وأدرك أبا بكر أهله وأبناؤه الذين كانوا بمكة ، فاستعان بهم على الحياة . فقد عملت أسرته - كما عملت أسرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب - في الزراعة في أراضي الأنصار مزارعة مع ملاكها . ولعل خارجة ابن زيد كان من هؤلاء الملاك ؛ فقد توثقت الصلة بينه وبين أبي بكر من بعد ، فتزوج ابنته حبيبة وجاءت منه بأم كلثوم ، وكانت حبيبة حاملاً بها حين وفاته .

أبو بكر بالمدينة

ولم تقم أسرة أبي بكر معه بدار خارجة بن زيد بالسُّنْح ، بل أقامت أم رومان وابنتها عائشة وسائر أبناء أبي بكر بالمدينة ، بدار تجاور دار أبي أيوب الأنصاري حيث نزل النبي . وكان هو يتردد عليهم ، جاعلاً معظم إقامته بالسُّنْح مع زوجته الجديدة .

وبعد قليل من مقامه بالمدينة أصابته الحمى التي أصابت أكثر الذين إصابته بالحمى هاجروا إليها من أهل مكة ، بسبب ما بين موطنهم ومهجرهم من تفاوت في الهواء ؛ فهواء مكة صحراوي جاف ، وهواء المدينة رطب لكثرة ما فيها من مياه وزروع . يروى عن عائشة أن أباهما أصابه من هذه الحمى رهق حتى كان يهذى لشدة ما نزل به منها .

فلما اطمأن إلى موطنه الجديد ، وإلى كدح أهله كدحاً أغناه عن الأنصار وجهه كل همه إلى معاونة الرسول في تثبيت دعوته وتوطيد مركز المسلمين ، لا يألو في ذلك جهداً ولا يضمن بتضحية .

ولقد كان الغضب لا يعرف إلى هذا الرجل الوادع سبيلاً إلا حين يرى خصوم الدعوة من اليهود والمنافقين يسخرون منها و يكيّدون لها . كان رسول الله قد عقد بين اليهود والمسلمين عهداً أن يكون لكل حرية الدعوة إلى دينه ، وأن يباشر من شعائره ما يشاء . وكانت اليهود قد حسبت أول الأمر أنها قادرة على أن تكسب المسلمين من أهل مكة ليكونوا عوناً لهم على الأوس والخزرج . فلما سقط في أيديهم وعجزوا عن التفرقة بين المهاجرين والأنصار ، بدعوا يكيّدون للمسلمين ويسخرون من دينهم . اجتمع رهط من يهود على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ودخل عليهم أبو بكر فرآهم كذلك ، فقال لفنحاص : « ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ! فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونّه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . » قال فنحاص وعلى شفّيته ابتسامة السخر والتهكم : « والله ، يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما ننصرع إليه كما يتضرع إلينا . وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغني . ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه

غضبة الصديق
على فنحاص

ولو كان غنياً عنّا ما أعطانا» . وإنما يشير فنحاص بعبارة هذه إلى قوله تعالى :
 « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .
 فلما رأى أبو بكر أن الرجل يستهزئ بقول الله ووجهه إلى نبيه ، لم يملك
 نفسه أن ضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً وقال : « والذي نفسى بيده لولا
 العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله ! » .

أليس عجباً أن تكون فى أبى بكر هذه الحدة وهو من هو لين طبع ورقة
 خلُتْ ووداعة نفس ، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين

وهذه الغضبة على فنحاص تذكرنا بغضبة مثلها ، كانت له قبلها بأكثر من
 عشر سنين . ذلك حين غلبت الفرس الروم ؛ والفرس مجوس ، والروم أهل
 كتاب . فقد حزن المسلمون لتهمك المشركين بهم وزعمهم أن الروم غلبت لأنهم
 أهل كتاب مثلهم . وتحدث مشرك فى الأمر أمام أبى بكر وألح فى الحديث ،
 فاغتاظ أبو بكر وراهنه عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام .
 ذلك يدل على أنه لم يكن شىء فى الحياة يثير نائرة أبى بكر أو يهيج غضبه
 إلا ما اتصل بعقيدته وبيمانه الصادق بالله ورسوله . كان هذا دأبه وهو فى
 الأربعين وظل هذا دأبه حين جاوز الخمسين ، وحين تولى الخلافة من بعد ودبر
 أمر المسلمين .

وهذا الإيمان الصادق قد ملك على أبى بكر كل مشاعره فى كل أطوار
 حياته منذ اتبع الرسول . وأنت تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل
 أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية . أما ما خلاها فقد
 كان ضعيف الأثر عنده ؛ فلا تجارته ، ولا أسرته ، ولا أهواؤه ، ولا شىء
 مما يتأثر به الناس فى الحياة ومما كان يتأثر به كثير من المسلمين فى ذلك العهد ،
 قد كان ذا سلطان عليه . بل كان قلبه ، وكان عقله ، وكانت روحه ، خالصة
 كلها لله ورسوله ، وكانت كلها الإيمان الذى بلغ من مراتب الإيمان عليها ،
 مراتب الصديقين ، وحسن ذلك مقاماً !

سلطان الإيمان
 على أبى بكر

انظر إليه بعد ذلك فى غزوة بدر : عدل المكيون صرفوفهم ، وعدل النبي
 صرفوف المسلمين للقتال ، وبنى المسلمون عريشاً لانيّ فى المؤخرة ، بإشارة

موقف الرسول
 فى غزوة بدر

سعد بن معاذ ، حتى إذا لم يكن النصر في جانبهم لحق رسول الله بالمدينة ، وأقام أبو بكر مع النبي في العريش يرقب معه سير المعركة . فلما ابتدأت ، ورأى محمد كثرة عدوه وقلة رجاله ، استقبل القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل ينشده ما وعده ، ويهتف به أن يتم له النصر ويقول : « اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذي وعدتني ! اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه ؛ ولم يطمئن حتى خفق خفقة من نعبس رأى خلالها نصر الله ، وانتبه من بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

موقف الصديق
في بدر

كان هذا موقف الرسول : لم يطمئن إلى انتصار رجاله القليلين على أعدائه الكثيرين ، حتى اتصلت روحه بسرّ من ربه أراه النصر ، وكشف أمامه حجب هذا اليوم الحاسم في حياة الإسلام . أما أبو بكر فظل إلى جانب الرسول متمكناً إيماناً بأن الله لا ريب ناصر دينه ، متمكناً مع إيمانه بالنصر إعجاباً بالرسول في مناجاة ربه ، وإشفاقاً على الرسول لشدة خوفه من مصير ذلك اليوم . وهذا ما دعاه ، والرسول يهتف وينادي ويناشد ويستنجز ربه ما وعده ، ويكرر ذلك ويعيده حتى سقط رداؤه ، أن يهيب به وهو يردّ الرداء على منكبيه : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ! » .

حب الرحمة
والحق مجتمعين
في قلبه

ألف الناس في كثير من المؤمنين بعقيدة لا يمارون فيها ولا يداجون ، أن يبلغ منهم التعصب لعقيدتهم مبلغاً يجعلهم أشداء لا يهنون ، غلاظاً لا يلينون . بل إن منهم لكثيرين لا يطيقون النظر إلى وجوه من يخالفونهم في هذه العقيدة . هؤلاء يرون أن الإيمان الحق يقتضيه هذا التعصب وهذه الشدة والغلظة . أما الصديق فكان ، على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدته فيه شدة لاتهن ولا تتردد ، بعيداً عن الغلظة ، قريباً إلى اللين ، عفواً عند القدرة ، محسناً متى تم لإيمانه النصر ، بذلك جمع في قلبه بين مبدئين من أسمى

المبادئ الإنسانية ؛ حب الحق ، والرحمة . ففي سبيل الحق كان يستهين بكل شيء ، وبالحياء قبل كل شيء . فإذا علّمت كلمة الحق ، غلب فيه جانب الرحمة ، وانقلب مؤمناً بها لإيمانه من قبلُ بالحق ، ضعيفاً لها حتى لتندرف عينه الدمع ترسله مدراراً .

تم النصر للمسلمين في بدر فرجعوا إلى المدينة ومعهم أسرى قريش . وكان هؤلاء يطعمون في الحياة ، وفي العود إلى مكة ، وإن أغلوا الفداء . لكنهم كانوا يخشون شدة محمد وبطشه بهم بعد الذي أذاقوه وأصحابه سنواتٍ مقاميه بينهم . قال بعضهم لبعض : « لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، وأكثرهم رحمة وعطفاً ، ولا نعلم أحداً آثرَ عند محمد منه » . وبعثوا إلى أبي بكر فقالوا له : « يا أبا بكر إن فينا الآباء ، والإخوان ، والعمومة ، وبنى العمومة ؛ وأبعدنا قريب . كلم صاحبك بمنّ علينا أو يفادنا » . فوعدهم خيراً . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فتحدثوا إليه بمثل حديثهم لأبي بكر ، فنظر إليهم شزراً ولم يجب . وأقام أبو بكر نفسه شفيح هؤلاء القرشيين المشركين عند رسول الله ، فجعل يستعطفه عليهم ويلين قلبه لهم ، ويدفع حجج عمر في الشدة بهم ، ويذكر ما بينهم وبين النبي من قرابة . وهو إنما صنع ما صنع من ذلك لما فطر عليه من طيبة القلب والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل . ولعله كان يرى بعين بصيرته أن لسلطان الرحمة الغلب آخر الأمر ، وأن الناس يتزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوا رحمة إنسانية سامية ، مبرأة من الضعف ، منزهة عن الهوى ، لا تحركها في النفس إلا القوة والقدرة ، وإلا سلطان الإنسان على نفسه سلطاناً يكبح من بطش القوة ويلين من عسف القدرة .

موقفه من
أسرى بدر

كانت غزوة بدر مبدأ حياة جديدة للمسلمين ، وكانت كذلك مبدأ اتجاه جديد في حياة أبي بكر . بدأ المسلمون ينظّمون سياستهم إزاء قريش وإزاء من ناوهم من القبائل المحيطة بهم ، وبدأ أبو بكر يشتغل مع النبي بهذا التنظيم أضعاف شغله بحماية المسلمين أيام سقامه بمكة . فقد كان المسلمون جميعاً يعلمون أن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأرها من بدر ؛ وكانوا يعلمون

اتجاه حياة
بدر

أنهم في حاجة إلى حماية دعوتهم الناشئة ، وإلى دفع كل معند عليهم . فلا بد من التدبير لذلك كله ، وتدبير الأمر له . وما كان لأبي بكر ، وموقفه من رسول الله ما رأيت ، أن يشغل نفسه من بعد بغير هذا التدبير والتدبير ، حتى لا تكون فتنة داخلية في المدينة بتحريض اليهود والمنافقين ، وحتى لا يغزو المدينة غاز من الخارج .

كان هو وعمر
وزيري الرسول

والحق أن نصر المسلمين بيدٍ قد أعزّت كلمتهم ، فحرك في نفوس منافسيهم حقداً عليهم أيّ حقد . حرك في نفوس اليهود حفاظ كانت ساكنة ، وحرك في قلوب القبائل المجاورة للمدينة مخاوف كانت مطمئنة . ولم يكن بدّ ، لاتقاء ما ينجم عن هذا وذاك ، من سياسة حكيمة ، وتقدير دقيق ، ومشاورة متصلة بين النبي وأصحابه . وقد اتخذ النبي من أبي بكر وعمر وزيرين يمحص على ضوء ما بينهم من تباين في الطبع مع صدق في إخلاص المشورة ، ما ينظم به سياسته الناشئة . هذا مع مشاورته غيرهما من سائر المسلمين ، مشاورة كان لها أثرها الكبير في جمع الكلمة ، وفي توزيع التبعية على الجميع ، توزيعاً يُشعر كل واحد بأن عليه منها قسطاً ونصيباً .

وكان من أثر ما تحرك من حفاظ اليهود أن حاصر المسلمون منهم بني قَيْنُقَاع وأجلوهم عن المدينة . وكان من أثر ما تحرك من مخاوف القبائل أن جعل المحيطون بالمدينة منهم يجتمعون للاعتداء عليها ، فإذا سمعوا بخروج محمد إليهم ولّوا فراراً وملئت قلوبهم رعباً .

موقفه في غزوة
أحد

وكانت هذه الأنباء تصل مكة ، فلا تصد قريشاً عن التفكير في الثأر لبدر . ولقد ذهبت تلمس هذا الثأر ، فالتقت بالمسلمين عند أحد ، فدارت الدائرة وجه النهار عليها ؛ لكن مصير اليوم تغير حين خالف رماة المسلمين أمر النبي ، وتركوا مواقفهم وانطلقوا يغمون مع الغانمين . فقد اهتبل خالد بن الوليد الفرصة فأوقعت قريش بالمسلمين فاضطربوا ؛ وأصيب النبي بجراحة كان المشركون يقذفونها ، فوقع لشقّه وأصيب في وجهه ، وتنادت قريش أنه مات . ولولا أن أحاط به من أبطال المسلمين من افتدوه بأنفسهم وأرواحهم ، لكان لله في خلقه من يومئذ شأن غير هذا الشأن . ومن يومئذ صار أبو بكر أكثر

ملازمة للنبي في غزواته وحين مقامه بالمدينة .

وأنت تذكر أن حياة المسلمين ، إلى أن استقر لهم الأمر بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف ، قد كانت حياة غزو ، ودفعا للغزو ، أو استعدادا لدفعه . دع عنك الغزوات الصغرى التي كانت أدنى إلى المناوشات . فقد كان اليهود ، وعلى رأسهم حبيبي بن أخطب ، لا يفتأون يؤلبون على المسلمين . وكانت قريش تبذل جهد الطاقة لإضعافهم والقضاء على سلطانهم . فكانت غزوات بني النضير والخذق وبني قريظة وما تخللها من الغزوات ، أثر سياسة اليهود ، وحقد قريش .

صار أبو بكر أكثر ملازمة للنبي في هذه المواقف والمواقع جميعا ، وهو أشد ما يكون برسالاته إيمانا وتصديقا . فلما اطمأن رسول الله إلى منعة المدينة وأن له أن يوجه خطته توجيها جديدا يمهّد الله به لإكمال دينه ، كان لأبي بكر مواقف زادت المسلمين اقتناعا بأنه الرجل الذي يلي رسول الله مكانة من نفوسهم ، وسموا في تقديرهم .

بعد ست سنوات من هجرة المسلمين إلى المدينة أذن محمد في الناس بالحج إلى البيت العتيق . وبلغ قريشا مسيرة القوم ، فأقسموا لا يدخل محمد مكة عليهم عنوة . وأقام محمد وأصحابه بالحديبية بظاهر مكة ، وهو مستمسك بالسلام ، رافض كل دعوة إلى منازلة قريش ، معلن أنه جاء حاجا ولم يجر غازيا . وتبادل مع قريش الرسل ، وانتهى الأمر بينه وبينهم إلى عهد رضى به أن يرجع عنهم عامه ، وأن يعود إليهم العام الذي يليه .

موقفه في
الحديبية

غضب كثير من المسلمين ، بينهم عمر بن الخطاب ، لتراجعهم ورجوعهم ، ورأوا في هذا العهد إعطاء للدينية في دينهم . أما أبو بكر فآمن وصدق بحكمة رسول الله . فلما نزلت سورة الفتح آمن الناس جميعا بأن عهد الحديبية كان فتحا مبيئا ، وبأن أبا بكر كان الصديق في هذه ، كما كان في غيرها من مواقفه .

كانت الدعوة الإسلامية تزداد على الأيام كمالا ؛ وكان المسلمون بالمدينة يزدادون بذلك بأسا وقوة . وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود في خيبر وفدك وتيماء ، وأخضعوهم لسلطانهم ، تمهيدا لإجلالهم عن بلاد

ازدياد قوة
المسلمين وإقبال
الوفود

العرب ، ثم كان من مظاهر قوتهم وكمال الدعوة أن أرسل محمد إلى الملوك والأمراء بفارس ، وُبَزَنْطِيَّة ، ومصر ، والحيرة ، واليمن ، وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات ، يدعوهم إلى الإسلام . فأما المظهر الأسنى لهذا الكمال وهذه القوة ، فذلك فتح مكة ، وحصار الطائف . بهذا كله تألقت نور الدين الحديد في شبه الجزيرة ، وجاوزها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا قابضتين على ناصية العالم في ذلك العصر : الروم ، وفارس ، وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخُطَّة الخذر ، حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يحاول أن يُغشَى هذا النور أو أن يضعف سلطانه .

وحين رأت العرب هذه القوة جاءت وفودهم تبرى من أنحاء شبه الجزيرة ، تألق نور الإسلام تعلن إيمانها بالدين الحديد . أليس هذا الداعي إليه قد كان وحيداً فريداً ، وما هو ذا قد انتصر على اليهود ، وعلى النصارى ، وعلى المجوس ، وعلى المشركين !! وهل ينتصر إلا الحق ! وهل آية أدل على أن دعوته هي الحق الخالص من انتصاره على هؤلاء جميعاً ، وهو لا يتغنى عليهم سلطاناً ، ولا يطلب إليهم إلا أن يؤمنوا بالله ، وأن يعملوا الصالحات ! ! هذا منطلق إنساني أقره الناس في كل زمن وآمنوا به أيماً وجدوا . وهو منطلق يقره العقل ما أثبتت السنون قوة حجته فلم يغلبه غالب .

وأذن الله أن يتم المسلمون فروض دينه . والحج تمام هذه الفروض . لكن تتابع الوفود لم يتح لرسول الله أن يغادر المدينة إلى بيت الله الحرام . لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالناس ، فخرج في ثلاثمائة من المسلمين ، حجوا وطافوا وسعوا . وفي هذا الحج أعلن علي بن أبي طالب إلى الناس - أو أعلن أبو بكر في رواية أخرى - أن لا يحج بعد ذلك العام مشرك . ثم أجعل الناس أربعة أشهر ، ليرجع كل قوم إلى مآمنهم وبلادهم . ومن يومئذ إلى اليوم ، وإلى ما يشاء الله ، لم يحج إلى البيت الحرام مشرك ، ولن يحج إليه مشرك .

وفي السنة العاشرة من الهجرة ، حج رسول الله حَجَّة الوداع ، وحج أبو بكر معه . وسار صلى الله عليه وسلم ، وصحبه نساؤه جميعاً ، وتبعه من حجة الوداع ثم بث أسامة

العرب مائة ألف أو يزيدون . ولم يطل مقام النبي بالمدينة بعد عودته من الحج ، حتى أمر بتجهيز جيش لـحجِّب إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش بالجرف ، ثم تراءى إليه أن رسول الله مرض ، فلم يتحرك إلى غرضه ؛ لأن المرض اشتد بالنبي شدة أثارت مخاوف الناس عليه .

ولما ثقل عليه المرض أمر أن يصلى أبو بكر بالناس . روى عن عائشة أنها قالت : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قلت يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيفٌ وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر يصلى بالناس . فقلت لحفصة : قولي له إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! فقالت له حفصة ، فقال : إنكن لأنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ! فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً » .

النبي يأمر أن
يصلى أبو بكر
بالناس

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي . وإنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلى بالناس . وكان عمر جهيم الصوت ، فلما كبر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة ، فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ولقد ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده بما أنه قد أمره بالصلاة مكانه ؛ فالصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

وفي أثناء هذا المرض خرج محمد إلى المسلمين يوماً بالمسجد ، وقال فيما قاله لهم : « إن عبداً من عباد الله خيرته الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عند الله » ، ثم أمسك . وقد أدرك أبو بكر أن النبي إنما يعنى نفسه ، فأجهش بالبكاء وقال : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » ، وأمر محمد أن تقفل أبواب المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم قال مشيراً إلى الصديق : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . وإني لو كنت متخذاً من

خليل رسول الله

العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وفي اليوم الذي قبض فيه النبي خرج ساعة الصبح إلى المسجد ، معتمداً على عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس ، وكان أبو بكر يصلّي ساعتئذ بالناس . فلما رأى الناس النبي فرحوا وتفرّجوا ، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . وأحسّ أبو بكر أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فتأخر عن مكانه ، فأوماً إليه النبي : أن كما أنت ، وجلس رسول الله عن يسار أبي بكر فصلّي قاعداً .

وعاد النبي بعد هذه الصلاة إلى دار عائشة . لكنه ما لبث أن عاودته الحمى ، فدعا بإناء فيه ماء بارد جعل يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه . وبعد سويعة من ذلك اختار الرفيق الأعلى ، واختار ما عند الله .

وترك رسول الله هذه الحياة الدنيا ، وقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته . فإذا يصنع العرب من بعده ؟ إنه لم يستخلف خليفة ؛ ولم يضع للحكم نظاماً مفصلاً . فليجتهدوا ، ولكل مجتهد نصيب .